رثاء البشرى

بمناسبة مرور عام على وفاته

لشاعر القطرين خليل مطران بك

وارحمتا لِمَن صروف زمانى ... أنّى رمت رَأَت السهامُ مكانى
إنى لأسأل والرفاق تحملوا ... أُترى يطيل عذابيَ الملوان
مَن مبلغ السلوان مقروحَ الحشا ... سدت عليه مسالك السلوان
منعاك يا عبد العزيز أمضّنى ... وأضاف أشجاناً إلى أشجانى
فاجأتنى بالنأى قبل أوانه ... هل حرقة كالنأى قبل أوان
أقسوء إخواناً ملكت قلوبهم ... ظرفاً وكنتَ مسرّة الأخوان
رَبَّ البيان وأنت بالغ شأوه ... أعجزت بالسبق البديع بيانى
أدب يحال مطالعو آياته ... أن الكلام مثالث ومثانى
فقت الذين أخذت عنهم يافعاً ... وبزرت من جلوا من الأقران
هذا بإجماع فماذا عارضت ... دعوى دعى من سَنى البرهان
لا خير فى زمن إذا ما طاولت ... فيه الصّعادُ عوالىَ المُرّانِ
أحدثتَ أسلوباً وكنت إمامَهُ ... وبقيت فَذّاً فيه مالك ثان
جمع السهولة والجزالة لفظه ... تتخالفانِ حِلًى وتأتلفان
ديباجة عربية مصرية ... نقشت برائعة من الألوان

مَن للنوادر تجتنى منها المنى ... ما تشتهى من طيبات تجان
مَن للبوادر لا يجود بمثلها ... قبل الروية أحضرُ الأدهان
مَن للدعابة وهى قد قرنت إلى ... حلم الشيوخ فراهةَ الشبان
إن تقفّتْ لطفت وفى ضحكاتها ... إيماضُ برقٍ لا انقضاضُ سنان
سَهلٌ تساقاها القلوب فتشتفى ... غَلَلٌ وتُقضى للقلوب أمان
بَدَواتُ أَلْسُنِ كاتب ومحدث ... صافى البداهة بارع التبيان
فى جِدّهِ ومزاحه متصرفٌ ... ببراعة خلابة ولسان
أخلا من البشرى عصر لم يكن ... فيه على ذاك المثال اثنان
شخص قليل ظِلُّهُ طاوى الحشى ... يمشى فلا تتوازنُ الكتفان
طلقُ المحيا إذ تراه وربما ... نمّت بكامن دائه العينان
حُبّت ملامحه بسُحّة أُدْمَة
هى من « منا » إن شئت أو « عدنان »
وبعارضيه الهابطين وَلِمّةٍ ... شعثاء لم تُلْمَمْ من الشوران
ومَعَنّةٌ يطوى عليها صدرَه ... وكأنه أبدا عليها حان
من ذلك التمثال لاحت للورى ... آياتُ أىّ حجّى وأىّ جنان
حُسنُ المنارة فى سطوع ضيائها ... لا فى زخارفها ولا البنيان
أما خلائقه فقل ما شئتَ فى ... جَمِّ المروءة راسخ الإيمان
ماضاق صدراً وهو أصدق مسلم ... بتخالف الآراء والأديان
نعم الفتى فى غيبة أو مشهد ... نعم الفتى فى السر والإعلان
بالعدل يقضى فى الحقوق وبالندى ... يقضى حقوقَ الأهل والجيران
يسعى كأدأب من سعى لِمُهمه ... مهما يجشّم دونه ويعانى
متشمراً بغدوّه ورواحه ... عَجِلَ الخطى مسترسل الأردان
لو كان ما فى جِدّهِ فى جَدّه ... لعلت مكانته إلى كيوان
لكنه لم يُلْفَ يوماً عاتباً ... أو طالباً ما ليس فى الإمكان
ورعى حقيقة نفسه وأجلّها ... عن أن تبدل عزةً بهوان
ما منصب فوق المناصب أو غنى ... فوق المطالب غاية الفنان
مهما يزاول فالكرامة عنده ... هى فى إجادته وفى الإتقان
ماذا يكون سليل بيت صالح ... عالى المنارة باذخ الأركان
الوالد الشيخ الرئيس وولدهُ ... شرواه فى أدب وفى عرفان
صبراً جميلاً يا أخاه وأنت مَن ... بحجاه يدرك حكمة الرحمن
كم فى القضاء تلوح للفطن الذى ... ولىَ القضاء سرائرٌ ومعان
وعزاءكم يا آله أن الذى ... تبكونه فى نعمة وجنان
وعزاءكم يا معجبين بفضله ... فيما دنا ونأى من الأوطان

للترفيه ، أن نظل كآبائنا فى نطاق محدود من الخيال ووسائل الفن . ولن يتأتى لنا — فيما أرى — أن نجارى ما يتحفنا به أدباء الغرب من روائع ، إلا إذا تحللنا من ذلك القيد الذى ظل الشعر العربى يرسف فيه منذ قرون طوال . ولاشك فى أن ذلك — مع المحافظة على ما امتاز به الشعر العربى من مقاطع وأوزان — يفسح لنا ميادين التفكير ويؤدى بنا إلى أن نستطيع الإنتاج بأنفسنا ، وتزويد الثروة الأدبية العالمية بثمرات جديدة من وحى بلادنا ، وفيض عواطفنا وأحاسيسنا ، ويومئذ نكون قد عرضنا للعالم ما تمتاز به لغتنا من جزالة وسعة ، ومايوحى به شرقنا — مهبط الأديان ومنزل الوحى — من حكمة ، وما تفيض به قلوب أبنائه من سمو فى العاطفة وعلو فى التفكير .

هذا رأى اقتبسناه من حديث للشاعر الكبير نعرضه لشعراء الشباب ، والرأى لهم الآن .

س . العنانى